أثر كتاب (فن الشعر) لأرسطو في كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ

د/ أميرة عـواد المريطب القايدي (*)

مقدمة :

عاشت الحضارة الإسلامية في عصورها الزاهرة منفتحة على الثقافات والحضارات الأخرى ، وكان العصر العباسي أحد عصور هذا التلاقي بين هذه الثقافات ، وظهر ثمار هذا التلاقي في الأدب العربي لدى عدد كبير من الأدباء ، ومن هؤلاء الأدباء، الأديب والمفكر أبو عثمان الجاحظ .

فالحقبة التي عاشها الجاحظ شهدت حصول امتزاج كبير بين العرب وغيرهم من الأمم ، فضلا عن كونه عاش مرحلة شهدت حصول أكبر حركة للترجمة عرفها العرب في تاريخهم ، وبناءً على قَبول الجاحِظِ بالثّقافاتِ الأجْنبيّة مضى يبذرُ في نِتاجه العِلميِّ أشتاتاً من المأثُورات المنقُولةِ عن الفلاسفةِ والحُكمـــاءِ غير العَرَب ممّا وجد فيه نَفعاً وفائدةً، وسَبيلاً إلى العِبرةِ والعِظة.

(*) الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية – تخصص البلاغة والنقد – كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة الملك عبد العزيز – جدة – المملكة العربية السعودية .

وقد تأثّر بالأفكار والآراء التي اطّلع عليها تأثراً واضحاً، واستمدّ من الموروُث اليُونانيّ والفارسيّ والهِنديّ، وشكلّت هذه الثّقافات مَورداً مُهماً أمدّه بطاقاتٍ جديدةٍ في الكِتابة، ومن ذلك تأثره بثقافة اليونان وكتبهم، وبخاصة ما جاء لدى الفيلسوف اليوناني (أرسطو) وظهر أثر ذلك في مؤلفاته.

ولعل هذا البحث يكشف عن بعضٍ من جوانب هذا التأثر لدى الجاحظ ، وبالأخص تأثره بما جاء في كتاب (فن الشعر) لأرسطو، وذلك من خلال تتبع ما قاله هذين العلمين في مؤلفاتهما ، والخلوص إلى أبرز مواضع التأثير والتأثر بينهما.

هدف الدراسة :

هذه الدراسة تهدف إلى الوقوف على أثر أرسطو في كتابه (فن الشعر) على الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين).

المنهج:

المنهج المتبع في الدراسة هو المنهج المقارن الذي يفيد من المنهج الوصفي من خلال استقراء ما جاء في كتاب (فن الشعر) لأرسطو ، وكتاب (البيان والتبيين) للجاحظ ، للكشف عن مواضع التأثير والتأثر.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة الموضوع أن تأتي خطة البحث في مقدمة ويليها مبحثين ، وخاتمة ، وثبت بالمصادر والمراجع.

المقدمة:

وتناولت فيها هدف الدراسة ، والمنهج المتبع، ، وخطة البحث.

المبحـــــــث الأول:

وفيه مطلبان:

المطلب الأول وفيه:

١- تعريف بأرسطو.

٢- تعريف بكتابه (فن الشعر).

٣- بيان منهجه.

المطلب الثاني وفيه:

١- تعريف بالجاحظ.

٢- اتصال الجاحظ بالثقافة اليونانية.

٣- تعريف بكتابه (البيان والتبيين).

٤- بيان منهجه.

المبحـــــــث الثاني:

أثر كتاب (فن الشعر) في كتاب (البيان والتبيين).

- الخاتمة.

- ثبت المصادر والمراجع.

المبحث الأول

المطلب الأول :

١- تعريف بأرسطو.

٢- تعريف بكتابه (فن الشعر).

٣- منهج أرسطو في كتابه.

١- تعريف بأرسطو:

ولد أرسطو طاليس سنة ٣٨٤ ق.م ، وفي هذا العام كان قد انقضى على موت (سقراط) خمس عشرة سنة ، بينما كان (أفلاطون) في الثالثة والأربعين من عمره ، وكان ميلاد أرسطو في مدينة صغيرة في (تراقيا) كانت تسمى (استاجيرا) ، أما اسمها الحالي فهو (استافرو) وكانت (استاجيرا) تقع شمالي شبه الجزيرة اليونانية، على بعد مائتي ميل من مدينة (أثينا) ، وعلى هذا لم يكن أرسطو كسقراط وأفلاطون أثينيا، ولكنه ولد ونشأ في ظروف ثقافية أخرى ، تختلف عن الظروف الحضارية الخاصة التي كانت تتميز بها أثينا.

كان أبوه (نيقو ماخوس) صديقا وطبيباً خاصاً لملك مقدونيا (امينتاس الثاني) جد الأسكندر الأكبر ، ومن ثم قضى أرسطو السنوات الأولى من طفولته في بلاط العاصمة (بيللا) ، ولأن مهنة الطب كان يتوارثها أبناء أسرته من أجيال عديدة، فقد هيأ الصبي للتدريب على مهنة والده وأجداده ، وبمعاونة مواهبه على تشرب الروح العلمية ، والميل إلى التحليل والبحث التجريبي.

ولما مات أبواه وهو صبي عهد باليتيم إلى وصاية أحد أقاربه ، ولما بلغ سن الثامنة عشرة ، رحل إلى أثينا والتحق بأكاديميتها وأخذ يتلقى دروسه على يد معلمها الأول أفلاطون إلى أن مات أفلاطون واضطر أرسطو إلى مغادرتها إلى مدينة (أسوس) وهناك أسس فرع للأكاديمية الأثينية، ولما أخذت شهرة (أرسطو) تغزو أنحاء اليونان استدعاه (فيليب) ملك مقدونيا إلى

(بيللا)، عاصمة ملكه ، وعهد إليه بتربية ابنه (اسكندر) وبعد عام غادر أرسطو مقدونيا إلى أثينا ، وبقى فيها اثنتي عشرة سنة ماتت في أثنائها زوجته (بثياس).

وعقب موت (الإسكندر الأكبر) في (بابل) عام ٣٢٢ ق. م ، استولى الحزب المعارض على السلطة في أثينا ، فاضطر أرسطو أن يتخلى عن رئاسة أكاديميته لخليفته (ثيوفراسطس)، وأن يهرب خوفا من مؤاخذة المسئولين الأثينيين له ، بسبب علاقته القديمة بالإسكندر وأسرته ، ولأنه مدرسته كانت تحت الرعاية المقدونية ، بينما تحولت أثينا إلى مركز عدائي لمقدونيا، وفي (خالقيس) التي هرب إليها أقام أرسطو مع أمه مدة عام ، ثم مات مريضاً بالمعدة ، سنة ٣٢٢/١ ق.م[١].

وترك أرسطو من الآثار العلمية والفلسفية شيئاً ضخماً ، انقسمت فيها آثاره لقسمين: كتب مدرسية خالصة لا يحسن فهمها إلا الذين تعودوا لغة المدرسة وأساليبها ومناهجها الفلسفية ، وكتب أخرى سهلة يسيرة توضع لعامة الناس وتذاع فيهم ، وهذه الكتب ذهبت بأكثرها أو كلها أحداث الزمان. أما الأخرى فقد بقيت في مدرسته حتى نقلت إلى روما على يد (سولا) الروماني ، ومن ذلك الوقت أخذ الفلاسفة في درسها وإذاعتها[٢].

٢- تعريف بكتابه (فن الشعر):

يتألف كتاب أرسطو (فن الشعر) كما وصل في أصله اليوناني من ستة وعشرين فصلاً ، تتفاوت فيما بينها من حيث الطول والوضوح، وربما كان هذا التقسيم من عمل البعض في عصر متأخر عن عصر أرسطو.

(١) ينظر فن الشعر مقدمة د. إبراهيم حمادة / ١٣ : ١٧
(٢) ينظر في الأدب اليوناني / ٣٠٥

وقد قام بعض مترجمي الكتاب المحدثين إلى تقسيمه في أجزاء ، يضم كل جزء بعض فصوله على نفس الترتيب الذي وصل به كتاب (فن الشعر)[١].

وقد عالج أرسطو في كتابه من المسائل ما رسم فيه بوضوح حدود النظرية الشعرية في عصره ، ومن واقع تراث أمته ، كما حدد معالم النظرية الشعرية عن طريق تأثيره في تاريخ نقد الشعر في جميع مراحله التاريخية في أوربا كلها.

ومها جدّ من نظريات نقدية في الشعر مخالفة لنظرية أرسطو في عالم النقد الغربي ، ومهما قيل من آراء تبدو ثورة على مفهوم الشعر عنده ، إلا أن هناك حقيقة ثابتة وهي أن كتيبه (فن الشعر) هو الأساس الذي تعتمد عليه النظرية الشعرية في معناها العالمي ، سواء من فروعها ما يمتد في الاتجاه الذي سار عليه أرسطو أم ما يمتد في اتجاهات مخالفة له[٢].

وأرسطو في كتابه لم يتحدث عن الشعر عامة ، وإنما تحدث عن فنون منه كانت موجودة لعهده ، كالمأساة والملهاة والملحمة ، واصطلاح المحاكاة عنده وقف على أنواع معينة من الشعر[٣].

٣- منهج أرسطو في كتابه:

لم يكن أرسطو مفكر تجريديا كما كان يغلب على أفلاطون ، ولم تكن لديه نظرية معدة سلفا يقيس بها الشعر ، فما وافقها قبله وأخذه ، وما خالفها رفضه ، بل كان منهجه يختلف عن منهج أفلاطون بشيئين رئيسيين :

---

(١) ينظر مقدمة فن الشعر ، تقديم : د. إبراهيم حمادة / ٢٧
(٢) ينظر في نقد الشعر / ٢٥
(٣) ينظر في الشعر للدكتور إحسان عباس / ١٥

أولهما: أنه يجعل من النصوص نقطة بداية له ، ويتناول هذه النصوص بمنهج وصفي ، يعتمد على استقراء خصائصها ، ثم تكوين فكرة عامة عن هذه النصوص ، نابعة من خصائصها العامة الثابتة ، أو بعبارة أخرى استخلاص نظرية عامة نابعة أساساً من خصائص هذه النصوص بعيداً عن الأفكار السابقة.

ومعنى هذا أن كتابه (فن الشعر) قائم على ما تعطيه النصوص الإغريقية في عصر أرسطو ، وما قبله.

والأمر الثاني: أن منهج أرسطو في تناول الشعر منهج كامل ، وليس جزءاً من منهج كما هو الحال عند أفلاطون ، الذي كان يتناول الشعر من جانب المناسبة، يهدف به إلى خدمة نظريته الفلسفية العامة ، أما نظرية أرسطو الشعرية فهي منهج قائم بذاته ، وهي إلى جانب ذلك منهج فني خالص يهدف إلى خدمة أهداف أدبية محضة هي تكوين نظرية شعرية متكاملة ، ولا يهدف إلى خدمة نظرية فلسفية من نوع ما[1].

المطلب الثاني

١-تعريف بالجاحظ.

٢-اتصاله بالثقافة اليونانية.

٣-تعريف بكتاب (البيان والتبيين).

٤- بيان منهجه.

تعريف بالجاحظ :

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، المشهور بالجاحظ ، كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ، ولد وتوفي في البصرة

(١) ينظر في نقد الشعر / ٢٥ ، ٢٦

(١٦٣-٢٥٥هـ) ، فُلج في آخر عمره ، له تصانيف كثيرة منها: البيان والتبيين ، والحيوان ، والبخلاء ، وله رسائل عدة: منها رسالة الحاسد والمحسود ، ورسالة التربيع والتدوير ، وغيرها[١].

كان ثاقب البصيرة ، متزن العقل ، دقيق التعليل ، حرّ الفكر ، فجاءت كتبه تلقن العلم والأدب ، اتسم بالملاحظة الدقيقة ، والروح المرحة ، والقلم الرشيق ، فصوّر أحوال عصره ، وحياة أهل زمانه ، وأخلاقهم وعاداتهم تصويراً يمتزج فيه الجد بالدعابة[٢].

وقد استطاع الجاحظ خلال اعتزاله أن ينفذ إلى تأليف مجموعة من الآراء تعصبت لها فرقة الجاحظية من المعتزلة ، وهي فرقة عرفت في ذلك العصر بكثرة الجدل والحوار ، كما عرفت بسعة ثقافتها واتصالها بجميع ألوان المعارف لعصرها ، وخاصة المعارف اليونانية ، ولم يشتهر المعتزلة في العصر العباسي بثقافتهم وجدلهم فقط ، بل اشتهروا بشيء مهم آخر وهو فصاحتهم وبلاغتهم ، وقد لقف الجاحظ في بيئة المعتزلة فصاحته وبيانه ، متأثراً بكتابات عصره ، حتى استوت له شهرة فائقة بين كتاب عصره[٣].

٢- اتصال الجاحظ بالثقافة اليونانية:

رافقت حياة الجاحظ بداية عهد عاشت فيه البصرة فترة هدوء نسبي ، عاش الجاحظ فيها عهداً من الاستقرار السياسي ، والازدهار الحضاري ، والتقدم الثقافي، مما ساعد على تقدم الدراسات في مختلف مجالات العلم والأدب، واتصل الأدباء ورجال العلم آنذاك بثقافات الأمم الأخرى ، وأخذوا يترجمون عنها إلى اللغة العربية ، هذه الثقافات التي اطلع عليها الجاحظ صادفت في مجتمعه البصري واقعاً ثقافيا متطوراً له جذوره التي استمدها من تمازج الثقافات

(١) ينظر الأعلام ٥ / ٧٤
(٢) ينظر تراجم الشعراء والأدباء / ٩٦
(٣) ينظر الفن ومذاهب في النثر العربي / ١٥٦

العديدة نتيجة لتواجد عدد من السكان غير العرب الذين حملوا معهم ثقافاتهم وعاداتهم ، فقد كان يعيش إلى جانب العرب سكان من النبط ، واليونان والفرس والهنود والزنج ، عاش الجاحظ في هذه البيئة التي تحمل مزيجاً من الأعراق ، وأثّرت في تكوين فكره ، وظهر ذلك واضحاً في مؤلفاته[1].

فكان أن اتصل بالثقافة اليونانية من خلال كتبهم المترجمة ، وعن طريق المتكلمين ، وبمجالسته لكثير من المثقفين باليونانية ، وظهر أثر ثقافته اليونانية واضحاً في كتاب (الحيوان) ، و (البيان والتبيين) ، فقد قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمة كتاب (الحيوان) واستدل برأي لأرسطو فيه ، ويذكر في كتابه (البيان والتبيين) صاحب المنطق (أرسطو) وأنه كان بكئ اللسان مع علمه بتمييز الكلام وتفضيله ومعانيه، وخصائصه ، ويذكر تعاريف البلاغة عند الأمم المختلفة، ومنها اليونان ، ويذكر كتب اليونان في المنطق ، ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم في الخطابة ذكر ، وأقسام الدلالة عند الجاحظ في كتابه هي من تفكير أرسطو ، ويذكر أن لليونان رسائلها وخطبها وعللها وحكمها وكتبها في المنطق . والجاحظ فيما ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من روح أرسطو، ومرجع هذا التشابه في الأفكار سببه نقل الجاحظ كثيراً عن الذين ألموا بثقافة اليونان وكتب أرسطو في النقد ، خاصة الخطابة والشعر[2].

٣- تعريف بكتاب (البيان والتبيين):

ألّف الجاحظ كتابه في أخريات حياته ، حين علت به السن وقعد به المرض، بعد تأليفه لكتاب (الحيوان) ، وحين ألّفه أهداه إلى القاضي أحمد بن

(١) ينظر النقد الأدبي عند الجاحظ/ ١٩ ، ٢٠
(٢) ينظر الحياة الأدبية في العصر العباسي/ ٣١٨ ، ٣١٩

أبي داود[1]. وكتاب (البيان والتبيين) ألَّفه الجاحظ على نمط طريف من التأليف من كثرة الرواية التي قصد الجاحظ من ورائها أن ينال كتابه الشهرة والإعجاب كما يقول في كتابه ، وينال كتابه الذكر والذيوع ، ومن كثرة الاستطراد الذي يستدرّ به الجاحظ نشاط القارئ وإعجابه.

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله أو كثيراً منها محاضرات يلقيها على تلاميذه ، وأسلوب الجاحظ الاستطرادي في كتابه جعله يعد في كتابه بأنه سيذكر الشيء ثم لا يذكر ، ولا يفي بوعده.

ولكتاب (البيان والتبيين) أثره في النقد الأدبي ، فهو سجل حافل للآراء المختلفة في النقد ، وهو أصل من أصول الأدب والنقد ، جعله الجاحظ جامعا لفنون كثيرة من ضروب الأدب [2]، مما جعل أبو هلال العسكري يشيد به حين قال عند الكلام عن كتب البلاغة : "وكان أكبرها وأشهرها كتاب (البيان والتبيين) ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو لعمري كثير الفوائد جمّ المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبّه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ، ومنتشرة في أثنائه ، فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير"[3].

٤- منهج الجاحظ:

يعدّ الجاحظ صاحب مذهب حرّ في النقد الأدبي ، يعتمد على الاستقصاء والتحليل في أحكامه وآرائه. فهو يلجأ إلى المذهب التقويمي حين

---

(١) ينظر مقدمة (البيان والتبيين) ١٥/١
(٢) ينظر الحياة الأدبية في العصر العباسي / ٣١٤ ، ٣١٥
(٣) كتاب الصناعتين / ٥

يوضح أوجه الإجادة في الشعر أو الرداءة فيه ، وهذه الاتجاه التقويمي يشكل الأساس لمذهب الجاحظ النقدي ، واستناداً إليه حكم على الشعر الجيد والردئ، وميّز بين الشعراء، إلا أنه كان يلجأ إلى المذهب الوصفي فيحدد على أساسه خصائص النصوص الشعرية ، ومميزات وخصائص الشعراء. ووازن بين وصف عنترة واختراعه وإبداعه في وصف الذباب ، ووصف غيره من الشعراء وحكم لعنترة بالسبق والإجادة ، وميز بين بشاراً والعتابي (بالبديع) في شعرهما.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نحدد منهج الجاحظ في النقد بأنه منهج يقوم على:

١- الذوق الأدبي المتمرس المدرب على النظر في الآثار الأدبية.

٢- الاستقصاء والتحليل والتعليل ، ويرفض الخطوات السريعة والأحكام الصادرة عن الهوى.

٣- أنه يجمع في أحكامه النقدية بين المذهب الوصفي الذي يحدد خصائص الأدب ومميزاته ، والمذهب التقويمي الذي يبين مواطن الجودة والرداءة في الآثار الأدبية[١].

نتائج المبحث الأول:

من خلال ما تم عرضه في المبحث الأول يمكن القول بأن هناك أوجه تلاق تاريخية وحضارية بين أرسطو والجاحظ ، يمكن تلخيصها فيما يأتي:

(١) ينظر النقد الأدبي عند الجاحظ / ٢٨٨ ، ٢٢٩

١- أرسطو:

عاش أرسطو حضارة علمية تهيأت له بفعل حياته المستقرة داخل أسرة توارثت مهنة الطب مما ساعده على تشرب الروح العلمية ، والميل إلى التحليل والبحث والتجريب من جهة ، ومن جهة أخرى تلقيه العلم في أكاديمية أثينا على يد معلمها (أفلاطون) ، إلى أن رحل إلى (أسوس) وهناك أنشأ فرع للأكاديمية الأثينية وعندما أخذت شهرته العلمية تغزو أنحاء اليونان استدعاه الملك فيليب ، وتبوأ أرسطو بذلك مكانة لدى الملك حتى عهد إليه بتربية ابنه.

- أرسطو صاحب فكر فلسفي يقوم على التمحيص والنقد القائم على الشواهد العملية والحقائق المادية ، وامتداد للمسيرة الفلسفية التي بدأها سقراط وأفلاطون ، ولكنه أضفى لها الكثير حتى لقبه العرب بـــ (المعلم الأول).
- خلّف أرسطو كثيرا من الآثار العلمية ، منها كتب مدرسية درست في أكاديميته أخذ الفلاسفة في دراستها والعكوف عليها ، ساهمت بدور كبير في تأسيس معالم النظرية الشعرية.

٢- الجاحظ:

- عاش الجاحظ في العصر العباسي في البصرة وهناك تهيأت له بفعل الاستقرار السياسي ، والازدهار الحضاري فرصة العناية بالإنتاج الأدبي ، وتجديد أدواته ومعاييره النقدية بما يتناسب مع هذا الواقع الحضاري والتاريخي والثقافي للأمة. فضلاً عن تمازج الثقافات في البصرة نتيجة لتعدد أعراق سكانها مما أتاح له الاطلاع على آداب الأمم الأخرى.

- والجاحظ رئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ، وقد عرفت المعتزلة في ذلك العصر بكثرة الجدل والحوار ، وسعة ثقافتها واتصالها بجميع ألوان المعارف في عصرها ، وخاصة المعارف اليونانية مما جعله يقترب من الفكر الفلسفي اليوناني.
- خلّف الجاحظ مؤلفات ضخمة تركت كثيراً من الآراء النقدية التي كانت موضع دراسة ونقد على مر العصور الأدبية إلى وقتنا الحاضر ، مما جعل من كتبه ما هو أصل من أصول الأدب ، مما جعله (كبير أئمة الأدب).

المبحث الثاني

أثر كتاب (فن الشعر) في كتاب (البيان والتبيين)

ظهر أثر كتاب (فن الشعر) لأرسطو في مواضع من كتاب (البيان والتبيين)، ولعل أبرز ما عالجه أرسطو وكان له أثر في كتاب الجاحظ يتضح فيما يأتي:

أولاً : تعريف الشعر:

يرى أرسطو أن الشعر الملحمي والتراجيدي ، والكوميدي . . . كل ذلك بوجه عام أشكال من المحاكاة ، ولكن كل نوع يختلف عن الآخر في ثلاثة أمور:

١- إما باختلاف المادة.

٢- أو الموضوع.

٣- أو الطريقة.

وهناك من الناس من يحاكون أشياء كثيرة بواسطة عمل صور لها باستخدام الألوان والأشكال ، وهكذا الأمر بالنسبة لكل الفنون التي سبق ، فإن المحاكاة فيها تتحقق باستخدام مواد: الوزن ، واللغة ، والإيقاع[١].

والذين يقومون بالمحاكاة يحاكون أناسا يفعلون ، وهؤلاء الناس يكونون بالضرورة إما أفاضل أو أردياء ، لأن اختلاف الأشخاص يكاد ينحصر في هذا التمييز وحدة تبعاً للفضيلة أو الرداءة ، وكذلك بالنسبة للتصوير فالمصور إما يصور الناس أحسن مما هم عليه في المتوسط العام ، أو يصورهم أسوأ مما هم عليه ، ولكل نوع من المحاكيات نفس هذه الفروق[٢].

---

(١) ينظر فن الشعر لأرسطو / ٦٤

(٢) ينظر السابق / ٧٧

ويذكر د. محمد عبد الغني أن الجاحظ كان قريباً من تعريف أرسطو للشعر[١] عندما قال: "وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير"[٢].

وفي موضع من كتاب (البيان والتبيين) يبدو فيه تأثر الجاحظ بنظرية المحاكاة عند أرسطو ، يقول: "ومع هذا إنّا نجد الحاكية من الناس ، يحكي ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم ، لا يغادر من ذلك شيئاً ، وكذلك تكون حكايته للخراساني والأهوازي والزنجي والسندي والأجناس وغير ذلك . نعم حتى نجده كأنه أطبع منهم ، فإذا ما حكى كلام الفأفاء فكأنما قد جُمعت كل طرفه في كل فأفاء في الأرض وفي لسان واحد ، وتجده يحكي الأعمى بصور ينشئها لوجهه وعينيه وأعضائه. . .

ولقد كان أبو دبوبة الزنجي مولى آل زياد ، يقف بباب الكرخ بحضرة المكارين[٣]، فينهق ، فلا يبقى حمار حريض ولا هرم حسير ، ولا متعب بهير إلا نهق. وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة ، فلا تنبعث لذلك... وكذلك كان في نباح الكلاب . ولذلك زعمت الأوائل أن الإنسان إنما قيل له العالم الصغير سليل العالم الكبير ، لأنه يصوِّر بيديه كل صورة ، ويحكي بفمه كل حكاية ...

---

(١) ينظر أثر الفكر اليوناني على الناقدين العربيين الجاحظ وقدامة / ١٦
(٢) كتاب الحيوان ١٣١/٣ ، ١٣٢ ، لم يظهر تعريف الشعر بشكل واضح لدى الجاحظ : إلا في كتاب الحيوان، أما كتاب البيان والتبيين فقد انصرف فيه إلى تناول أمورا أخرى ترتبط بالشعر ولكنها لا تعرفه.
(٣) المكارين : جمع مكار ، وهو من يكريك دابته تنتفع بها بالكراء ، وهو الأجر .

وإنما تهيأ وأمكن الحاكية لجميع مخارج الأمم ، لما أعطى الله الإنسان من الاستطاعة والتمكن ، وحين فضّله على جميع الحيوان بالمنطق والعقل والاستطاعة. . . "[١].

ثانياً: الفرق بين الشاعر والناظم:

فرّق أرسطو بين الشاعر والناظم ، وذكر أن الناس في الحقيقة يضيفون كلمة (صانع) أو (شاعر) إلى اسم العروض الذي يصوغ فيه الشاعر شعره ، كما لو أن المحاكاة هي التي لا تصنع الشاعر ، وإنما استخدام الوزن الشعري هو الذي يسمح لهم بالاسم ، دون تمييز بين من يحاكي ومن لا يحاكي ، حتى لقد جرت العادة على أنه إذا ما وضعت مقالة منظومة في الطب ، أو العلوم الطبية أن يسمى ناظمها شاعراً ، مع أنه لا يوجد وجه شبه مشترك بين (هوميروس)[٢] و(أمبدوكيس)[٣] ، غير استعمال الوزن العروضي ، ومن ثم يكون من الأصوب أن نسمي أولهما (شاعراً) أما الآخر فيصدق عليه اسم (العالم الطبيعي) أكثر منه اسم الشاعر [٤].

وبناء على ما ذكر في كتاب فن الشعر فإن المحاكاة لا الوزن هي التي تفرق بين الشعر والنثر ، فالذي ينظم حقائق التاريخ أو نظرية في الطب أو الطبيعة لا يسمى ما نظمه شعراً[٥].

---

(١) البيان والتبيين ٦٩/١ ، ٧٠

(٢) من المتفق عليه أن الأدب اليوناني يبدأ بـ (هوميروس) (القرن التاسع أو الثامن ق.م) لأنه لم يبق من الآداب التي كتبت قبله شيء ، وكان معظم اليونانيين القدماء يؤمنون بأن (هوميروس) هو مؤلف ملحمتي الإلياذة ، و (الأوديسة) ، والذين ينكرون وجوده يزعمون بأن كلمة (هوميروس) وتعني الأعمى – ليست إلا لقب كان يعرف به منشد ضرير وقد أبقى التاريخ اللقب ، وأضاع الاسم الحقيقي. . . ينظر هامش الفصل الثاني من كتاب فن الشعر تعليق د. إبراهيم حمادة / ٧٣.

(٣) امبدوكليس: (٤٩٣ – ٤٣٣) ق . م ، كان فيلسوفاً ، وعالما ، وشاعراً ، وخطيباً ، ورجل دولة ودين ، ومطبباً ، ينظر السابق / ٧٤.

(٤) ينظر فن الشعر / ٦٥

(٥) ينظر النقد الأدبي الحديث / ٥٢.

والجاحظ يقترب مما ذهب إليه أرسطو في تعريفه بين الشاعر والناظم فالجاحظ يفرق بين الشعر وبين الكلام الموزون ، فلا يكون شعرا كل كلام موزون جاء على أوزان الشعر ، إنما الشعر مضامين وأفكار ، وإيقاع موسيقي ، وأخيلة وصور وعواطف تميزه بها ، فلابد أن يتضمن الشعر معاني يشعر بها الشاعر ويقصد إليها في شعره حتى تسمى ما ينظمه شعرا ، والجاحظ أخرج بذلك من حيز الشعر الكلام الموزون الذي يتضمن معاني لا يكسوها لبوس شعري ، وهو بذلك فتح باباً واسعاً لإخراج المؤلفات العلمية من حيز الشعر ، كالمنظومات في النحو[1].

يقول الجاحظ في موضع من كتابه في هذا الشأن : "اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم . لوجدت فيها مثل مستفعِلن مستفعِلن كثيراً ، ومستفعلُن مفاعِلُن . وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا. ولو أن رجلاً من الباعة صاح : من يشتري باذنجان؟ لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات . وكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟ ومثلُ هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام.."[2].

ثانياً: منشأ الشعر:

ذكر (أرسطو) أن الشعر – بوجه عام – قد نشأ عن سببين ، كلاهما أصيل في الطبيعة الإنسانية.

١- فالمحاكاة فطرية ، ويرثها الإنسان منذ طفولتها ، ويفترق الإنسان عن بقية الأحياء في أنه أكثر استعداداً للمحاكاة.

---

(١) ينظر النقد الأدبي عند الجاحظ/ ١٢٣ ، ١٢٤

(٢) البيان والتبيين ٢٨٨/١ ، ٢٨٩.

٢- كما أن الإنسان - على العموم - يشعر بمتعة إزاء أعمال المحاكاة والشاهد على ذلك هو التجربة: فمع أننا يمكن أن نتألم عند رؤية بعض الأشياء ، إلا أننا نستمتع برؤيتها هي نفسها ، وهي محكية في عمل فني محاكاة دقيقة التشابه(١).

ونجد لقول أرسطو السابق مثيل عند الجاحظ عندما تحدث عن العوامل المؤثرة في قول الشعر ، والمحركة له ، والمثيرة لمكامن المواهب والإلهام وذكر الدواعي النفسية التي تسهل قول الشعر كالطبع ، والشوق والغضب ، والسرور ، والحالات الانفعالية التي يكون القول فيها أقرب إلى الطبع والبديهة والموهبة الفطرية(٢).

ففي حديثه عن العوامل الفطرية يقول:

"... وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إحالة فكر ولا استعانة ، . . . فما هو إلا أن يصرف همه إلى جملة المذهب ، و إلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني إرسالاً وتنثال عليه انثيالاً ، ثم لا يقيِّده على نفسه ، ولا يدْرسه أحداً من ولده . . . "(٣).

وإذا كان أرسطو قد تحدث عن أثر المتعة على الإنسان عندما يشاهد الأعمال المحكية ، فإن الجاحظ أيضاً قد تحدث عن أثر العوامل النفسية في إنشاء الشعر كالغم والحزن ، وقد ذكر الجاحظ مثالاً على ذلك قول الباهلي: "قيل لأعرابي : ما بال المراثي أجود أشعاركم؟ قال: لأنا نقول وأكبادنا تحترق"(٣).

---

(١) ينظر فن الشعر / ٩٢.
(٢) ينظر النقد الأدبي عند الجاحظ / ١٣٨
(٣) البيان والتبيين ٢٨/٣
(٣) البيان والتبيين ٢/ ٣٢٠

ثالثاً: اللغة الشعرية:

يقول أرسطو في حديثه عن اللغة الشعرية : "وجودة اللغة تكون في وضوحها وعدم تبذلها . فالحقيقة أن أوضح الأساليب اللغوية ، هو ما تألف من الكلمات الدارجة العادية ، إلا أنها تكون في نفس الوقت مبتذلة. . . ومن جهة أخرى، فإن اللغة تصبح متميزة وبعيدة عن الركاكة، إذا ما استخدمت فيها الكلمات غير المشاعة . . . إلا أن اللغة التي تتألف كلية من هذه الكلمات ، تكون إما ملغزة ، وإما رطانة مبهمة.

وأقصد باللغة الملغزة تلك التي تتألف من مجازات واستعارات ، وبالرطانة تلك اللغة التي تتألف من كلمات غريبة ، أو نادرة. . . "[١].

فأرسطو في هذا النص يدعو إلى هجر الألفاظ المبتذلة التي يستعملها العامة ، والبعد عن الركاكة ، ويولي اهتمامه باللغة الشعرية التي تشمل على المجازات والاستعارات ، والكلمات المنتقاة المتخيرة ، ولذلك نظير عند الجاحظ في دعوته إلى ترك الوحشي والسوقي ، يقول الجاحظ : "وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميّا، وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً ، إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً. . . "[٢].

رابعاً: البعد عن التكلف والإسراف في اللغة التي يستخدمها الشاعر:

حينما تحدث أرسطو عما ينبغي على الشاعر من أن يؤثر دائماً المستحيل المحتمل على الممكن غير المحتمل ، أشار إلى ما يتعلق (باللغة) فقال: "أما فيما يتعلق باللغة ، فينبغي العناية بها ، في المواضع التي تخلو من

---

(١) فن الشعر / ٢٢٩

(٢) البيان والتبيين ١٤٤/١

الفعل، حيث لا يوجد تعبير عن شخصية أو فكر. لأن الإسراف في تنميق اللغة ، يمكن أن يطمس الشخصية و الفكر"[١].

والجاحظ يذهب إلى ما ذهب إليه أرسطو من الدعوة إلى ترك الإسراف والتكلف الممقوت الذي يخرج العمل الشعري من حدود السهولة إلى الوعورة والتعقيد ، يقول: "وقد علمنا أن من يقرض الشعر ، ويتكلف الأسجاع ، ويؤلف المزدوج ، ويتقدم في تحبير المنثور ، وقد تعمق في المعاني ، وتكلف : إقامة الوزن، والذي تجود به الطبيعة وتعطيه النفس سهواً رهواً ، مع قلة لفظه وعدد هجائه ، أحمد أمراً ، وأحسن موقعا من القلوب ، وأنفع للمستمعين ، من كثير خرج بالكد والعلاج ... "[٢].

فالقول ولو كان قليلاً يخرج عفو الخاطر بلا تكلف ، أعظم منزلة من القول الذي يقود إليه التكلف ، والتعمق في المعاني ، ومحاولة الغوص عليها، فيضيع معها جمال العمل الأدبي والشعري.

خامساً: العناية بتجويد الشعر:

أكد أرسطو في كتابه على ضرورة التجويد في صياغة المجاز الذي هو أحد عناصر عناية الشاعر بتجويد شعره ، فبعد حديثه عن مراعاة الاستخدام الصحيح لكل ضرب من ضروب التعبير الشعري يقول: "ولكن الشيء الأعظم أهمية من هذا كله ، فهو التجويد في صياغة المجاز ، وهو الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يتعلمه المرء عن غيره ، إنه آية العبقرية ، لأن صياغة المجاز الجيد تدل على موهبة بصيرية قادرة على إدراك وجوه الشبه في أشياء غير متشابهة"[٣].

---

(١) فن الشعر / ٢٤٧
(٢) البيان والتبيين ٢٨/٤
(٣) فن الشعر / ٢٣٢

وقد التفت الجاحظ إلى ضرورة عناية الشاعر بتجويد شعره ، والعناية بتثقيفه وتحبيره ، وإعادة النظر فيه إن أراد لشعره أن يكتمل بناؤه ، ولم يقف الجاحظ عند حدود العناية بصياغة المجاز ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فقال: "...وإن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، و إلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة ، وإحكام الصنعة و إلى سهولة المخرج وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وإن حاجة المنطق إلى الحلاوة ، كحاجته إلى الجزالة والفخامة. . . "[1].

سادساً: تفاوت الشعر بتفاوت الشعراء:

التفت أرسطو إلى الحديث عن اتجاه الشعر إلى اتجاهين وفقاً لطباع كل شاعر من الشعراء ، فجعل معيار تصنيف الشعر هو اختلاف الطباع من شاعر إلى آخر ، يقول: "ولقد اتجه الشعر اتجاهين وفقاً لطباع كل شاعر من الشعراء : فذوو الطباع الجدية الرزينة ، حاكوا الأفعال النبيلة ، وأعمال الأشخاص الأفاضل ، بينما حاكى أصحاب الطباع المتضعة أوالعادية ، أفعال الأردياء ، فأنشأوا الأهاجي في البداية ، في حين أنشأ ذوو الطباع الجدية الترانيم للآلهة ، والمدائح لمشهوري الرجال. . . "[2].

وكذلك عنى الجاحظ بمثل هذا التصنيف ، ولكن من منطلق آخر ، حيث صنّف الشعراء ، وميز بينهم على أساس جودة أشعارهم ، وسماهم بأسماء تميز بينهم وفقاً لما ارتضاه تصنيف طبقات الشعراء التي سمعها عن علماء العربية، يقول: "والشعراء عندهم أربع طبقات . فأولهم : الفحل الخنديد. والخنديد هو التام. قال الأصمعي : قال رؤبة : "الفحولة هم الرواة".

---

(1) البيان والتبيين ١٤/١
(2) فن الشعر / ٩٣

ودون الفحل الخنديد الشاعر المُفلق ، ودون ذلك الشاعر فقط ، والرابع الشعرور . . . "[1]. وقال في موضع آخر : "وسمعت بعض العلماء يقول: طبقات الشعراء ثلاث : شاعر ، وشويعر ، وشعرور . . . "[2].

نتائج المبحث الثاني:

من خلال ما تم عرضه في المبحث الثاني يمكن القول أن أبرز عناصر تأثير كتاب (فن الشعر) في كتاب (البيان والتبيين) لدى الجاحظ هي:

- اقتراب الجاحظ من تعريف أرسطو للشعر الذي يحصره في المحاكاة ، والجاحظ يجعل الشعر صناعة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير ينقله الشاعر ، كما نقل صوراً للمحاكاة من واقع حياة العرب واتصالهم بغيرهم من الأمم التي تحاكي كلامهم.
- فرّق أرسطو بين الشاعر والناظم ، فليس كل من ينظم كلاماً موزوناً يسمّى شاعرا ، والجاحظ كذلك يفرق بين الشعر والكلام الموزون ، فلا يكون شعرا كل كلام موزون ، إنما الشعر عنده مضامين وأفكار ، وأخيلة وصور وعواطف تميزه.
- ذكر أرسطو أسباب نشأة الشعر ، وأرجعها لعاملين : الفطرة ، والمتعة إزاء رؤية الأعمال الفنية وهي محاكاة ، والجاحظ في المقابل تحدث عن العوامل والأسباب المؤثرة في قول الشاعر ، ومنها الطبع والفطرة ، والشوق ، والغضب والحالات النفسية.

---

(١) البيان والتبيين ٢/٩
(٢) السابق ٢ / ١٠

- أرجع أرسطو جودة اللغة الشعرية إلى وضوحها وعدم تبذلها ، وبعدها عن الركاكة ، واعتمادها على المجازات والاستعارات ، وكذلك دعا الجاحظ إلى ترك الوحشي والسوقي والغريب.
- دعا أرسطو إلى ترك الإسراف في تنميق اللغة ، لأن ذلك يمكن أن يؤدي إلى طمس الشخصية والفكرة ، و إلى ذلك ذهب الجاحظ حينما دعا إلى البعد عن تكلف الأسجاع ، وتعمق المعاني ، وتكلف إقامة الوزن ، وتحبير المنثور.
- أكد أرسطو على ضرورة العناية بتجويد الشعر من خلال التجويد في صياغة المجاز الذي هو أحد عناصر البناء الشعري.

ونجد الجاحظ كذلك يلتفت إلى ضرورة عناية الشاعر بتجويد شعره ، وتثقيفه وتحبيره الذي هو من تمام الآلة وإحكام الصنعة.

- أشار أرسطو إلى تفاوت الشعر تبعاً لتفاوت طباع كل شاعر ، فذود الطباع الجدية حاكوا الأفعال النبيلة ، وذوو الطباع المتضعة أو العادية حاكوا أفعال الأردياء ، فأنشأوا الأهاجي.

والجاحظ عنى أيضاً بتصنيف الشعر تبعاً لقائله من الشعراء ، وجعل معيار ذلك جودة الشعر ، فالشعراء عنده على طبقات : شاعر ، وشويعر ، وشعرور.

الخاتمة :

بعد هذه الرحلة بين كتاب (فن الشعر) وكتاب (البيان والتبيين) لعلي هنا ألخص أبرز عناصر التأثير والتأثر بين هذين المؤلَّفين وأصحابهما وهي:

- التقاء الجاحظ مع أرسطو في أوجه لقاء تاريخية وحضارية تمثلت في الاستقرار التاريخي ، وتهيؤ الظروف الحضارية والثقافية ، مما جعل شهرتهما العلمية تغزو البلاد لدى كل منهما ، وكلا النقادين صاحب فكر فلسفي يقوم على التمحيص والنقد القائم على النظر في الأعمال والآثار الأدبية والبعد عن الهوى. وكلا الناقدين خلف تراثاً فكرياً ضخماً من المؤلفات التي لا يزال طلاب العلم يعكفون عليها في كل مكان وفي كل زمان.
- **التقى الجاحظ مع أرسطو في كتابه في مواضع عديدة منها:**

* تعريف الشعر.
* التفريق بين الشاعر والناظم.
* بيان أسباب نشأة الشعر.
* الحكم على جودة اللغة الشعرية من خلال وضوحها وعدم تبذلها.
* الدعوة إلى ترك الإسراف والتكلف.
* الدعوة إلى ضرورة العناية بتجويد الشعر.
* بيان تفاوت الشعر واختلافه باختلاف الشعراء.

قائمة المصادر والمراجع :

١- أثر الفكر اليوناني على الناقدين العربيين الجاحظ وقدامة بن جعفر بقلم محمد عبد الغني المصري (دار عمار ، عمان ، ط١ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م).
٢- الأعلام : خير الدين الزركلي (دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط٥، ١٩٨٠م).
٣- البيان والتبيين : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تحقيق وشرح: عبد السلام هارون (دار الجيل – بيروت – د. ط).
٤- تراجم الشعراء والأدباء : مصطفى رسام (المكتبة المحمدية ، الرياض ، ١٩٩٤م).
٥- الحياة الأدبية في العصر العباسي: د. محمد عبد المنعم خفاجي (دار الوفاء ، الإسكندرية ، ط١ ، ٢٠٠٤م).
٦- فن الشعر : د. إحسان عباس : (دار الثقافة ، بيروت – لبنان ، ط٦، ١٩٧٩م).
٧- فن الشعر : لأرسطو ، ترجمة وتعليق د. إبراهيم حمادة (هلا للنشر والتوزيع ، الجيزة ، ط١ ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).
٨- الفن ومذاهبه في النثر العربي : د. شوقي ضيف (دار المعارف ، مصر، ط٥).
٩- في الأدب اليوناني : كمال بسيوني (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٠م).
١٠- في نقد الشعر : د. محمود الربيعي (دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة ، د.ط).

١١- النقد الأدبي الحديث : د. محمد غنيمي هلال (دار العودة ، بيروت، ١٩٨٧م).
١٢- النقد الأدبي عند الجاحظ : محمود الأطرش (مكتبة ربيع ، حلب ، ط١ ، ١٩٧٩م).
١٣- كتاب الحيوان: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون (دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ط٣ ، ١٣٨٨هـ ، ١٩٦٩م).
١٤- كتاب الصناعتين : أبو هلال العسكري (المكتبة العصرية ، صيدا ، ١٩٨١م).